الصبر والشكر.. منفعة وإحسان

◄يقول ابن القيم في "مدارج السالكين": "إنّه حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وهو ثلاثة أنواع: صبرٌ على طاعة ا، وصبرٌ عن معصية ا، وصبرٌ على امتحان ا".

كما كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإنّ هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره على المعصية فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس. وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح وصبر أبيه (عليهما السلام) على تنفيذ أمر ا أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف.

أمر ا سبحانه في كتابه بالصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل.. الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه.

والشكوى إلى ا لا تنافي الصبر، فإنّ يعقوب (ع) وعد بالصبر الجميل، وإنما ينافي الصبر شكوى ا، لا الشكوى إلى ا.

صبرٌ با: الاستعانة به ورؤيته أنه المصبّـِر، (وَاصبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلا با) (النحل/ 126)، يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

صبرٌ : الباعث للمسلم على الصبر محبة ا والتقرب إليه، لا لإظهاره قوة النفس والاستحماد إلى الخلق.

صبرٌ مع ا: دوران العبد مع مراد ا الديني منه، ومع الأحكام الدينية، صابراً نفسه معها، يتوجه معها أينما توجهت ركائبها.. فقد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه.. وهو صبر الصديقين.

وقيل: "الصبر باﷲ بقاء، وﷲ غناء، ومع اﷲ وفاء، وفي اﷲ بلاء، وعن اﷲ جفاء".

ومن الناس من يدّعي محبة اﷲ وحين يمتحنهم بالمكاره ينخلعون عن حقيقة المحبة ولا يثبت معه إلا الصابرون.. وقد تبيّـَن بذلك أنّ أعظمهم محبة أشدهم صبراً، ولهذا وصف اﷲ بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب (ع): (إنّا وجدناهُ صابِراً نّعِمْ العَبْدُ إنّهُ أوّابٌ) (ص/ 44)، ثمّ أثنى عليه، فقال: "نعم العبد إنه أواب".

أمّا الصبر في المحن على أذى الظالمين وعند النوازل والبلاء، فإنّ العبد يستجلب الصبر ويستعين عليه بالآتي:

- ملاحظة حسن الجزاء.

- انتظار الفرج.

- تهوين البلية بأمرين؛ أولهما: أن يعد نعم اﷲ وأياديه عنده، فإن عجز عن عدها وأيس من حصرها هان عليه ما هو فيه من البلاء، ورآه بالنسبة إلى أيادي اﷲ كقطرة في بحر.. وثانيهما: تذكر سوالف النعم (في الماضي).

وسُئل الشافعي: أيها أفضل الصبر أم المحنة أم التمكين؟ فقال: "التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتُحن صبر وإذا صبر مُكّـِن؛ ألا ترى أنّ اﷲ عزّ وجلّ امتحن إبراهيم عليه السلام ثمّ مكّـَنه، وامتحن موسى (ع) ثمّ مكّـَنه، وامتحن أيوب (ع) ثمّ مكّـَنه، وامتحن سليمان (ع) ثمّ مكّـَنه وآتاه ملكاً، والتمكين أفضل الدرجات، قال اﷲ عزّ وجلّ: (وكَذلك مكّـنّا لِيُوسُفَ في الأرضِ) (يوسف/ 56)، وأيوب (ع) بعد المحنة العظيمة مُكّـِن، قال اﷲ تعالى: (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) (الأنبياء/ 84).

- خمس قواعد:

وجناح الشكر نصف الإيمان.. فالإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر.

وتظهر على العبد آثار نعمة اﷲ، على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

والشكر كما يقول "ابن القيم" مبنيٌّ على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

فمن عظمت عليه نِعَم اﷲ وجب عليه أن يتلقاها بعظيم الشكر، لاسيما أنبياءه وصفوته من خلقه الذين اختارهم، وخشيةُ العباد ﷲ على قدر علمهم به.

- سجود الشكر:

هل جربت سجدة الشكر تأسياً بالرسول؟ ففي الحديث "أنّ النبي (ص) أتاه أمر فسُرّ به فخر ساجداً"، قال الترمذي هذا حديث حسن غريب، وقال المنذري: وقد جاء حديث سجدة الشكر من حديث البراء بإسناد صحيح، ومن حديث كعب بن مالك.

- منفعة وإحسان:

وفي شكر المسلم انتفاعٌ له هو، فمنفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة لا إلى ا.. (وَمَن يَشْكُرْ فإنّما يَشْكُرُ لِنَفسِه) (لقمان/ 12)، فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه، لا أنه مكافئ به لنعم الرب، فالرب تعالى لا يستطيع أحدٌ أن يكافئ نعمه أبداً، ولا أقلها ولا أدناها.. فلا يستطيع أحدٌ أن يحصي ثناءً عليه، وقد أحسن ا إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها، فشكرُه نعمة من ا تحتاج لشكر آخر.. وهكذا.

والعجيب أنّ من تمام نعمه سبحانه، وعظيم كرمه وجوده، أن يُنعم علينا ثمّ يوزعنا شكر النعمة، ويرضى عنا ثمّ يعيد إلينا منفعة شكرنا، ويجعله سبباً لتوالي نعمه واتصالها إلينا، والزيادة على ذلك منها: (وإنّ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) (الزمر/ 7).►